العنصر الخامس:

التفاعل المشترك للعناصر

لقد تناولنا فيما سبق، تلك المعاني الكبيرة التي تحملها العناصر الطبيعيّة الأربعة في ثناياها. إن مَنْ يتأمَّل البيئة المُحيطة بتلك النظرة الرمزية والشموليَّة في آنٍ معاً، فهو بالتأكيد سوف يجد العناصر الطبيعيَّة الأربعة في كلِّ مكان وفي كلِّ زمان، مُتفاعِلةً على الدوام فيما بينها في تنوُّعٍ شديد وتناغمٍ فريد.

إن إدراك هذا التفاعل الفريد والمتنوِّع فيما بين العناصر الطبيعيَّة الأربعة يؤدِّي إلى فهمٍ أعمق وأوسع لجوهر الوجود من حولنا . ينبغي أن يكون هذا الإدراك محور جميع أفعالنا وحركاتنا. ويستطيع القيادي في هذا السياق تحقيق أقصى ما يُمكِن تحقيقه من منافع ومكاسب، حينما يكون قادراً بالفعل، على وضع ذلك التفاعل الفريد والمتناغم فيما بين العناصر الطبيعيّة الأربعة، نصب عينيه على الدوام.

لنتأمَّل الآن معاً، كيف يكون تناغم هذه العناصر فيما بينها في سياق المواقف والأدوار القياديّة المختلفة، وبالتالي تأثير هذا العنصر الخامس، الذي يُجسِّد ذلك التناغم المشترك والفريد للعناصر الأربعة:

إن تقديم الخبرات، يُشكِّل في جوهره وبحدِّ ذاته مهمَّةً قياديّة، حيث تكون مزايا العنصر المائي في هذا السياق بالتحديد ذات أهمِّية خاصة. والمطلوب في هذا السياق بالتحديد هو التالي:

الماء

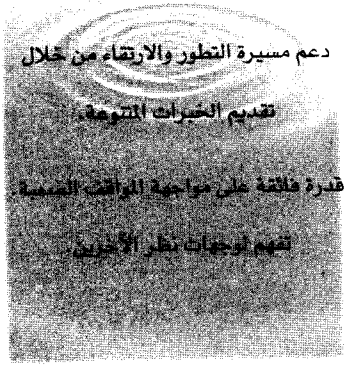

النار

التراب

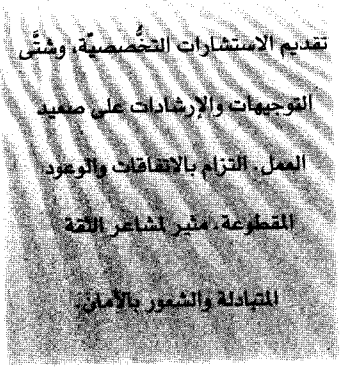

الهواء

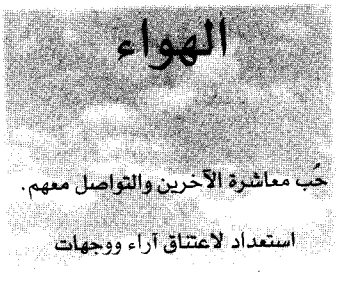

نظر الآخرين.

قدرة على الإبداع، وابتكار فرص

وآفاق جديدة متنوعة.

التفاعل المتوازن فيما بين العناصر الأربعة، تكريس

لتكوين فريق العمل الناجح والمتألِّق.

والمطلوب هنا هو التالي:

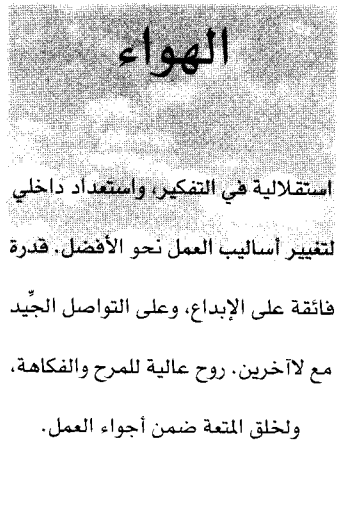

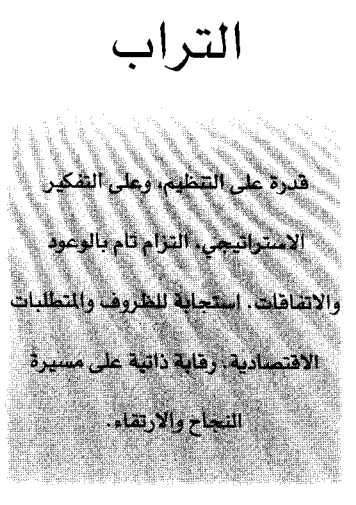

لقد سبق أن أشَرْنا، أن مشاعر الحماسة تُشكِّل بحدّ ذاتها، أهمّ السمات التي يتحلَّى بها العنصر الناري. تكون النفس البشريَّة هنا لهيباً مُشتعِلاً. غير أن هذه الحماسة لا تكون في أوْجِها، إلاَّ بتفاعل العناصر الأربعة معاً، والسمات التالية ضروريَّة لتحقيق هذا الغرض:

الماء

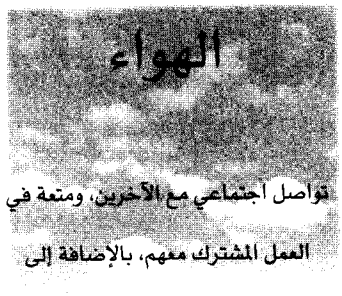

التسامح مع أخطائهم.

التراب

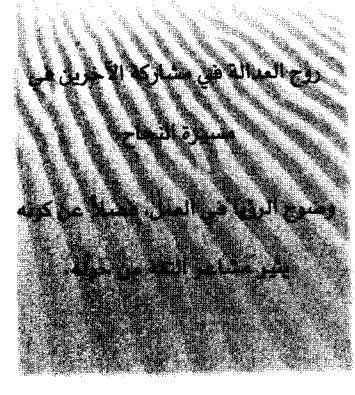

المحادثة الناجحة، الداعمة لمسيرة تطوير العاملين وارتقائهم، تفتقر بالدرجة الأولى إلى مزايا العنصر المائي. إن نجاح هذه المحادثة البنّاءة، لا يكون في ذروته، إلاَّ بتفاعل العناصر الأربعة معاً، وفي سماتها التالية على وجه الخصوص:

الماء

النار

التراب

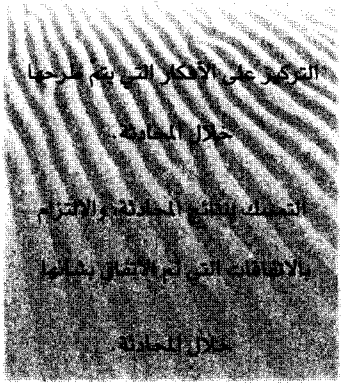

الهواء

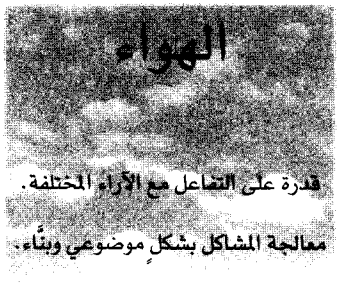

قدرة فائقة على التكهُّن

بُجريات الأحداث.

إن نجاح فريق العمل يعتمد كذلك الأمر على نمط الظهور المُميَّز لكلٍّ من أعضاء الفريق. ويُشكِّل نمط التواصل «الهوائي» في هذا السياق أمراً حاسماً، وذلك من خلال توافر السمات التالية:

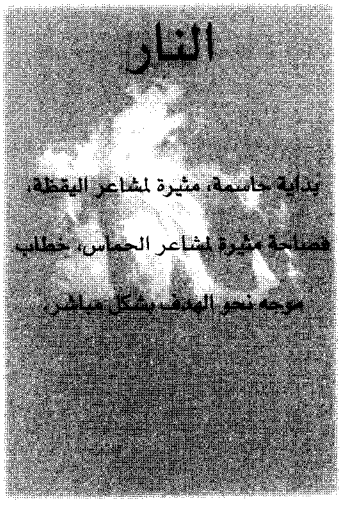

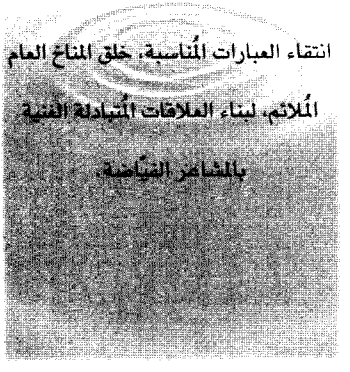

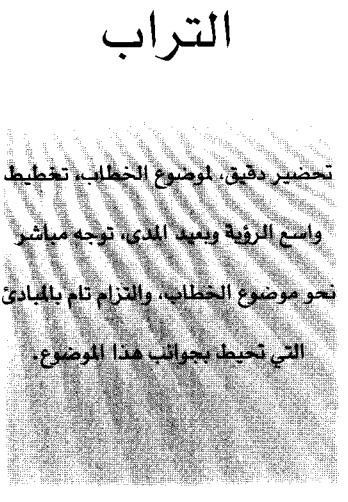

إن القدرة على تنظيم الأمور، تُعتَبَر إحدى السمات الحيويَّة للعنصر الترابي. ويحتاج ذلك في الحقيقة، أوَّل ما يحتاج، إلى تفاعل السمات التالية للعناصر الأربعة معاً:

الماء

تفعيل الأدوار الفردية للأشخاص المعنيين بإجراء التغييرات التنظيمية اللازمة، دعم العلاقات المتبادلة وعمليات تبادل المعلومات التي من شأنها الإسهام في المضي قدماً في إتمام عملية التنظيم.

النار

تفعيل الأفكار المرتبطة بجوهر عملية التنظيم، توجه مباشر نحو الهدف، وذلك للحلول دون حدوث أي تشويش على الآليات الإجرائية المرتبطة بعملية التنظيم.

التراب

وضوح القواعد والرؤى التنظيمية، تفعيل النتائج التي تم الوصول إليها، تدقيق تفاصيل العملية التنظيمية، بث الشعور بالطمأنينة والأمان من خلال العمل على توظيف الكفاءات المناسبة.

الهواء

استعداد داخلي تام لإجراء التغييرات اللازمة والضرورية في البنى التنظيمية المختلفة، ابتكار طرق وأساليب جديدة أكثر مرونة وفاعلية.

إن سرَّ الوجود، يراه المُتصوِّفون عموماً في محور هذه العناصر الأربعة مُجتمعةً. وفي الحقيقة، فإن ثمَّة برعماً خامساً ينبت من ثنايا تصالب براعم العناصر الطبيعيَّة الأربعة. ويُشبه هذا البرعم الخامس، إلى حدٍّ كبير، زهرة اللوتس في العقيدة البوذيّة، كرمزٍ للتحرُّر والانعتاق من قيود المادّة. ليس من قبيل الصدفة حتماً، أن لزهرة اللوتس خمسة أوراق أيضاً. لقد شكَّلت هذه المعرفة في كيمياء العصور القديمة، منارة الاهتداء إلى «إكسير الحياة»، الذي من شأنه أن يحوِّل المعدن البخس إلى ذهبٍ برّاقٍ ولامع، والذي من شأنه كذلك الأمر أن يشفي المرضى من سائر عِللهم وأسقامهم.

ثمّة أسرارٌ إذن، اكتنفت هذا العنصر الخامس، الذي يُحسُّه المرء في أعماقه، دون أن يُدركه بحواسِّه الظاهرة. ليس هذا العنصر الخامس في الحقيقة سوى نتاج تفاعل العناصر الأربعة مُجتمعةً. هذا الرمز الذي يُشكِّلُه العنصر الخامس نراه أحياناً، وبوضوحٍ تام ضمن صروح الكاتدرائيّات، تجتمع أقواس القباب الأربعة في أعلى السقف الداخلي للكاتدرائيّة في تصالبٍ فريد، يتسرَّب من خلاله أحياناً في بعض الكنائس نور السماء، وحيث تُحلِّق في أجوائه أحياناً حمامة الروح القُدُس. ربَّما يظهر المسيح هنا مُتربِّعاً على عرشه، في وسط الرسُل الأربعة، الذين يُجسِّدون في الواقع العناصر الأربعة الطبيعيّة. لقد أشارت المخطوطات القديمة إلى هذا التصالب الفريد. لقد أشارت هذه المخطوطات إلى أن هذا التصالب يحوي في جوهره، ذلك السر العظيم الذي يكتنف طريق الحياة الطويل والمُتعرِّج، منذ أزل التاريخ. وقد وَرَد في هذا السياق، في إحدى تلك المخطوطات الأثرية:

«هو يسير مُتألِّقاً في طريقه المتعرِّج والطويل جداً غارقاً في نارِه ومائه وهوائه وترابه».

وفي الواقع، فإن معرفة هذه الحقيقة، تقود المرء لأن يختبر بنفسه ذلك التفاعل الفريد فيما بين العناصر الطبيعيَّة الأربعة، التي تُجسِّد الأمزجة البشريَّة على اختلاف ألوانها. وكما تُشكِّل تلك المعرفة للصوفيين فائدةً كُبرى، فهي تعود كذلك الأمر على الإداريين والقياديين في مواقع عملهم بفوائدَ جَمَّة لا تُحصى. ثمَّة سرٌّ خفيٌّ يكتنف مسألة فن قيادة الأفراد، ولا مناص على الإطلاق من كون ذلك سيبقى سرّاً إلى الأبد. ليس ثمَّة شكّ، أن نمط الشخصيَّة القياديَّة الكاريزميّة، لا يُمكن حصر جوهرها أو تحديد ماهيَّتها، في شكل قواعد توجيهيَّة أو إرشادات تعليميَّة.

وفي الحقيقة، فإنه ينبغي علينا أن لا تكتفي، ولا بحالٍ من الأحوال، بما تُمليه علينا القواعد السطحيَّة المُنظِّمة لفنون الإدارة، والتي كثيراً ما تتناولُها وتتطرَّق إليها أُمَّهات الكتب والمراجع التعليميَّة. غير أن الطريق الطويل والمُتعرِّج لا يخلو من العلامات الكثيرة على المُنعَرَجات، وعلى مُفتَرَقات الطرق، تلك العلامات التي من شأنها أن تُرشِد عابرِ السبيل إلى الطريق السليم. ثمَّة سِكَّتان أساسيّتان في هذا الطريق الطويل، ينبغي اقتفاء أثريْهما على الدوام: الأولى، هي تلك التي تُمثِّل في الواقع الجانب الاقتصادي، الذي لا يُمكِن بدونه إجراء أيِّ تنظيمٍ ناجحٍ على صعيد الشركات والمؤسسات، والثانية هي تلك التي تعكس الجانب الإنساني، الذي لا يُمكِن بدونه كذلك الأمر، ولا بشكلٍ من الأشكال، أن نُطيق مُمارسة أيِّ عملٍ يُذكَر.

ولا يَسعني في الختام سوى الإقرار، بأن هذه العناصر الأربعة، وكما تبدو لي كصُوَرٍ مُبسَّطة للتوجُّه السليم على صعيد الفرد أو الجماعة، تُشكِّل في جوهرها منارة الاهتداء إلى برِّ الأمان. وكما في البوصلة تماماً، فهي تُوضِّح وبشكلٍ دقيق، الجهات الأساسيَّة الأربعة التي يتساوى في الواقع كلٌّ منها في مدى أهميَّتِه. وإن مسرح الحياة مُستقرٌّ في محور الدرجات الثلاثمائة والستِّين لهذه البوصلة الإرشادية.

«ثلاثون برمقاً في الدرّاجة. وفي الحقيقة، هو الفراغ فيما بينها الذي يُحرِّك الدرّاجة.»

«الحكيم لاوتسي»